2

الهوية العرقية والنزعة الوطنية الإجبارية: عرب أمريكا قبل 9/11 وبعده

سيتولى هذا الفصل معاينة تأثيرات 9/11 في العرب الأمريكيين وأقليات أخرى مع تأكيد عنصري التربية والأدب. أدى 9/11 إلى تغيير جل جوانب الحياة الأمريكية؛ وحتى ما يعرف باسم استعادة "نمط الحياة الأمريكية" إن هي إلا عملية مسخ أُلبست الثوب المدروس الذي ألح من خلاله قادة أمريكا على إدخالها فترة النقاهة. إن أحداث 9/11 وما ترتب عليها من عواقب تغرق النقاد الاجتماعيين بقائمة لافتة بطولها من القضايا التي تتطلب الدرس لعل أولاها حساسية وطنية مفرطة - قد يفضل البعض: دفاعية مفرطة - بين الطلبة والأساتذة. وهذه الحساسية **ملائمة** فيما يخص ما يشار إليها أكثر الأحيان باسم **الدراسات العرقية** أو التعددية الثقافية. (ومع أن التعبيرين، كليهما، إشكاليان، فإنني سأستخدم التعبير الأكثر شيوعاً: الدراسات العرقية لوصف الدراسات التي تتناول الجماعات العرقية الأمريكية من غير البيض). طالما دأب النقاد العرقيون على استحضار مراكز قوة أمريكا (البيضاء) التقليدية وتحديها. كذلك حافظوا على علاقات

وثيقة مع السياسة الثورية؛ اضطلع النقاد العرقيون، في الحقيقة، بدور محوري في الكشف عن آليات عمل الإمبريالية الأمريكية وصولاً إلى صياغة سياسات بديلة رداً على تلك الإمبريالية على الصعيدين الداخلي والدولي (الأمثلة كثيرة منها: إدوارد سعيد، فاين ديلوريا الابن، روبرت واريور، اليزابت كوك - لين، باربارة كريستيان، آنجيلا ديفيس، ليزا سهير مجاج).

لأن النقاد العرقيين يتحدون إنتاج الهيمنة الأمريكية وإعادة إنتاجها، يتعين علينا أن نستكشف أسلوب عمل تلك التحديات في بيئة منفعلة - بل قمعية في الحقيقة أحياناً - حديثاً. بعد 9/11، تعرضت المخالفة، وهي حجر زاوية بالنسبة إلى الدراسات الإثنية، للهجوم بوصفها لا وطنية، متهمة خطيرة في مجتمع اليوم. في الجامعات الأمريكية الحديثة التي يتزايد النظر إليها على أنها استثمارات يجب أن تحقق عوائد آخر المطاف، تُعد المخالفة - أي اللاوطنية -، على المستوى النظري، انعداماً للمسؤولية، من قبل الآباء والأمهات الساخطين والجماعات المحافظة. وبما أن المخالفة متأصلة في الدراسات العرقية، فإنها هدف الهجمات عادة (موقع نو اندكرينيشن دوت أورغ، مثلاً، زاخر بطلاب يتذمرون من أساتذة يستغلون خطابات الأقليات). في حوار حديث سألني أحد أساتذة الدراسات المتخصصة بشؤون الهنود (الحمر) في أمريكا: "كيف نستطيع إفهام الناس حقيقة الإمبريالية الأمريكية في الجماعات الهندية (الحمراء) مع بقاء موضوع الإمبريالية من المحرمات المحظورة هذه الأيام؟" وهذا، بصيغه المختلفة، سؤال حاسم بالنسبة

إلى أي باحث يتعامل مع جماعات محلية أو دولية في صراع ما مع الولايات المتحدة.

بوصفي ناقداً أمريكياً من أصل عربي أجدني متأثراً بالسؤال المطروح أعلاه. إذا عدّلناه قليلاً نحصل على ما يأتي: كيف يستطيع أساتذة مادة ثقافة عرب أمريكا ومجتمعهم أن يستوعبوا وضع الجالية العربية الأمريكية في أعقاب 9/11؟ ما التغيير الذي طرأ على ثقافة عرب أمريكا ومجتمعهم؟ والأهم من هذا وذاك، كيف السبيل إلى فضاء صالح لتطوير دراسات متخصصة بعرب أمريكا وقد بات هؤلاء هدفاً لذلك النوع من الاهتمام الذي كان الباحثون، فيما مضى، يضجون في المطالبة به؟

للسؤال الأخير صداه، وإن كان استثنائي التعقيد. في حين أن نقاد عرب أمريكا درجوا فيما مضى على الشكوى من نقص القضايا العربية - الأمريكية في الاختصاصات المختلفة، فإن إدخال تلك القضايا في فروع الطيف الأكاديمي ملتبس في أفضل الأحوال. قبل 9/11 كان باحثو الدراسات العربية - الأمريكية في بداية طريق التنظير للعلاقة بين عرب أمريكا ومجال الدراسات العرقية (جنباً إلى جنب مع مجالات وميادين دراسية أخرى). ليس لدينا، إذن، إلا القليل من البحث السابق الذي يمكن الانطلاق منه لتحديد موقع ما أصبحت جالية متعددة الأبعاد والوجوه بعد 9/11 في العالم الأكاديمي. في الفقرات التالية، سألخص عدداً من القضايا ذات العلاقة لدى عرب أمريكا قبل 9/11 وبعده؛ سأقوم بتحليل قاموس مفردات ما بعد 9/11 الذي يحدد شكل تصورات

التيار الرئيس للعرب ولعرب أمريكا؛ سأناقش جملة القضايا النظرية التي تؤثر في كل من إنتاج فرع دراسات عرب أمريكا وتَلَقّيه على حدٍّ سواء؛ وسأقوّم العلاقات المحتملة بين سياسة عرب أمريكا وسياسات جماعات عرقية أو أقلية أخرى.

عرب أمريكا من قبل ومن بعد

قد تنطوي مناقشة تطور بحوث طائفية معينة في أعقاب حادثة محددة على قدرٍ من الحماقة. يحلو لنا أن نعتقد، آخر المطاف، بأن البحث الأكاديمي - إنتاجاً وتلقياً - يتشكل مما هو أكثر من مجرد رد فعل. وكثيرون منا يدافعون أيضاً عن الفكرة شبه المثالية المتمثلة بأن البحث الأكاديمي يشكل الأحداث بمقدار ما يتشكل بها. ونقاد الأدب - خصوصاً - دأبوا على الاهتمام بمسألتي النفوذ والمقاومة منذ عقود، الأمر الذي تمخض عن فيض من الأسئلة وغيض من الأجوبة. والصعود الحديث للآداب العرقية (آداب الأقوام والشعوب والأقليات) أدى إلى إغناء الحوارات العرقية الدائرة حول فوائد الأدب واستخداماته، التي كانت، قبل انبثاق التعددية الثقافية، تركز على مؤلفين بيض متخصصين بالفرع التقليدي، من ناحية، وإلى تعقيد هذه الحوارات من ناحية ثانية. ولهذا الصعود أصداء خاصة بعد 9/11، وهو حدث بالكاد بدأ الباحثون والفلاسفة يتفهمون مضاعفاته الاجتماعية - السياسية. أتطرق هنا إلى الأدب لأنه، في الغالب، المجال الذي يتم فيه استحضار جملة النزاعات الثقافية والأخلاقية وتحليلها، بل تحويلها إلى ألغازها في الحقيقة. أريد استكشاف تلك النزاعات

بحد ذاتها أملاً في أن نتمكن - لاحقاً - من تطبيقها، على نحوٍ أفضل، على دراسة الأدب أو تربية الأدب. أكثر من أي طرف آخر، عاش عرب أمريكا مضاعفاتٍ اجتماعية- سياسية بعيدة المدى في أعقاب 9/11، دون أن يتمخض ذلك، للأسف، عن كتلة موازية من البحوث المبنية داخلياً - أي المنتجة من قبل عرب أمريكيين - اللازمة لمعاينة التحولات السريعة الحاصلة في الجالية. وهذه المضاعفات الاجتماعية - السياسية بالكاد بدأت تتطور إلى ظواهر قابلة للتحليل. لعل الأهم من كل شيء هو أن عرب أمريكا لم يكونوا متوفرين على أداة بحثية ناضجة قبل 9/11. وقد شكل اجتراح أداة كهذه - رداً على حدث كان ذا تأثير استثنائي القوة في بنية الجالية العربية الأمريكية - تحدياً.

النقطة الأخيرة جديرة بشيء من الاهتمام لأنها ستكون ذات أهمية محورية بالنسبة إلى هذا الفصل. في الأعوام التي سبقت 9/11، كان الباحثون العرب الأمريكيون من الاختصاصات المختلفة عاكفين على دراسة الأمريكيين من ذوي الجذور الشرق أوسطية بوصفهم **عرباً أمريكيين** - وهو تطور لا تجوز الاستهانة بأهميته - وتقويم احتمالات لملمة فرع بحثي متميز حول تلك المقولة. بادر نقاد الأدب إلى الاضطلاع بأكثرية المحاولات، إلا أنهم دُعموا - بالمشاركة أحياناً - بأعمال أنجزها مؤرخون، علماء انتروبولوجيا، مبدعون، علماء نفس، فلاسفة، سوسيولوجيون، محامون، علماء سكان، اختصاصيو استطلاعات رأي، وآخرون. وعلى الرغم من أن الدوائر الأكاديمية والمجتمع الأمريكي إجمالاً كان، بين الحين والآخر، يعترف بوجود كيان عربي أمريكي، فإن الجالية كانت إلى حدٍّ كبير،

حسب تعبير نادين نابر "الجماعة العرقية/القومية "غير المرئية"" لدى الولايات المتحدة[1]. غير أن 9/11 أحدث تغييراً عاصفاً وأدى إلى قلب هذا الواقع رأساً على عقب. تطور عرب أمريكا من ظاهرة غير مرئية إلى مقولة صارخة الحضور الدائم (سواء أكان هذا الحضور مرحَّباً به أم لا).

مثل هذا التطور العاصف أدى في بعض الحالات إلى تعزيز بروز أبحاث ما قبل 9/11، غير أنه تمخض في حالات أخرى عن إضفاء صفة القدم أو حتى اللا جدوى، وهو أسوأ، على تلك الأبحاث. قبل 9/11 درج الباحثون على معاينة عدم قابلية رؤية عرب أمريكا أو هامشيتهم - أو أي تعبير آخر استخدمه هؤلاء للدلالة على الانزواء في الأطراف.. أما بعد 9/11 فقد وجدوا أنفسهم مطالبين بإذاعة أو ترجمة ثقافتهم لأمريكيي التيار الرئيس. جاء الطلب مشفوعاً بفضول يتعذر إشباعه حول العرب وعرب أمريكا؛ ما من أحد بدءاً بالأمريكيين "العاديين - البسطاء" وانتهاء بكبار الساسة إلا وبات متلهفاً لمعرفة شعب كان قد قلب الحياة الأمريكية رأساً على عقب، قد أحدث تغييراً يستحيل الرجوع عنه. فجأة صار عرب أمريكا مرئيين، وقابلية الرؤية تلك لم تكن، بسبب المقاصد الدنيئة والبشعة لسائر أجهزة القانون والاستخبارات، قابلة للاحتضان والترحيب بالضرورة. بل وقد كانت في الغالب مصدر خوف وشكوى. على حين غرة أفضت هذه القضايا إلى إجبار عرب أمريكا على إحداث انقلاب في الصيغة كانت مضاعفاته كبيرة لعدم وجود صيغة راسخة يتم نقل التركيز

منها في المقام الأول. ما لبث فرع دراسي كان استكشافياً أن أصبح في غمضة عين مطلوباً بحد ذاته ولخيره هو لدى القاصي والداني.

ثمة عامل منافس آخر، ولكنه أقل أهمية، يعالج الحساسيات السياسية للجالية العربية الأمريكية. فكل من مايكل سليمان[2]، الكسيا ناف[3]، إريك هوغلوند[4]، نبيل أبراهام[5]، ونادين نابر يتفقون، جميعاً، على أن عرب أمريكا، قبل حرب 1967، وقد كانوا مسيحيين بأكثريتهم في تلك الفترة، كانوا ميالين إلى الذوبان في البوتقة الأمريكية ولو مع الحفاظ على سمات ثقافية موروثة عما يعرف بالعالم القديم (مثل المأكولات، اللاهوت، تربية الأطفال، العلاقات الأسرية - أما اللغة العربية، بالنسبة للأكثرية، فلم تنتقل من المهاجرين إلى الأولاد). أما بعد 1967، فقد سارع عدد كبير من عرب أمريكا إلى استرجاع نوع من الإحساس بالانتماء القومي. والنزعة القومية التي أثارها إلى حدٍّ كبير تجريد العرب من ممتلكاتهم، تعززت بموجة جديدة من المهاجرين المسلمين والعرب المسيسين سلفاً في العالم العربي دونما حاجة، نظراً لحريات أمريكا المحمية جيداً، إلى إخفاء هوياتهم العرقية- الدينية. فعل المهاجرون الجدد المسيحيون والدروز الشيء نفسه. ظهور مطرد لتأريخ "موال للعرب" أو "قائم على المراجعة" تناول الشرق الأدنى في السنوات اللاحقة أسهم في غرس نوع من الكبرياء العرقية في عرب أمريكا الذين كانوا، قبل 1967، شبه محرومين من التمثيل في الثقافة الشعبية والسياسية الأمريكيتين. ومع حلول عقد تسعينيات القرن العشرين، كان هناك وعي عربي كامل الأوصاف لدى

المهاجرين العرب الذين وُلدوا في أمريكا، الذين سارعوا إلى التعبير عن ذلك الوعي فكرياً وإبداعياً.

على الرغم من عدم إمكانية الحديث عن وجود صيغة واحدة من صيغ الوعي - أو صيغ تصور **العربي الأمريكي** - خلال هذه الفترة، فإن الباحثين كانوا موشكين على تحقيق اختراقات حاسمة في الأعوام التي سبقت 9/11 مباشرةً. تجلت هذه الحقيقة بنشر الكتاب الذي حرره مايكل سليمان بعنوان: **عرب أمريكا: بناء مستقبل جديد**، وكتاب من تأليف خالد مطوع ومنير عكاش بعنوان: **ما بعد جبران: مختارات من الكتابات العربية الأمريكية الجديدة**(6)، مع سلسلة من المقالات المتطورة نظرياً بقلم ليزا سهير مجاج(7)، أما في ميدان الأدب، فإن ديانا أبو جابر ورابح المدين حققا شهرة واسعة بروايات دائرة حول موضوعات ذات علاقة بعرب أمريكا من جهة وبالشرق الأدنى من ناحية أخرى(8). اجتماعات مفعمة بالحيوية احتفالاً بالثقافات العربية ولمناقشة هواجس عرب أمريكا عُقدت في طول الولايات المتحدة وعرضها، في سائر المدن والبلدات الريفية الكبيرة. فجأة اهتدى طلاب جامعات أنصاف أو أرباع عرب، بعضهم من الجيل الثالث أو الرابع، ممن جاء أجدادهم من العالم العربي (من سورية أو لبنان عادةً)، إلى قيمة معينة في أن يكون المرء عربياً أمريكياً وبادروا إلى استعادة انتمائهم العرقي عبر زيارة الشرق الأدنى وتعلم اللغة العربية أو العمل لدى المنظمات غير الحكومية في القرى ومخيمات اللاجئين. يتعذر فهم هذه الظاهرة ما لم نقرنها بظواهر مشابهة حاصلة مع أفراد ينتمون إلى جماعات عرقية أخرى - "اختيار" إن سكوت موماداي المتحدر من

obeikandi.com

أم مختلط الدم، أن يكون من التشيروكي، مثلاً[9]. ولم تكن مصادفة أن تتطابق مثل هذه التقويمات العرقية، بحسناتها وسيئاتها، مع تصاعد نفوذ حركات الزنوج والهنود (الحمر) في الستينيات والسبعينيات، جنباً إلى جنب مع تنامي قوة رابطة الدفاع عن الملونين (NAACP)، مؤتمر القيادة المسيحية الجنوبية (SCLS)، إضافةً إلى عدد متنوع من المنظمات المناهضة للحرب (حتى جماعات شديدة العداء للعرب مثل رابطة مئير كاهانا للدفاع عن اليهود أسهمت في خلق جو مناسب لاكتساب الهوية العرقية قدراً كبيراً من الأهمية). ومع أن من الصعب الإحاطة الكاملة بتأثيرات تلك الحركات، فإنها كثيراً ما وفرت للشباب المهمشين، المعزولين، أو المترددين الضائعين (بل وبعض الراشدين أحياناً) وَهْم هوية مستقرة أو شعوراً بالانتماء إلى أسر وجاليات متميزة عن التيار الرئيس للمجتمع. وقد كان هذا الشعور استثنائي القوة بالنسبة إلى المنزعجين ببعض جوانب السياسة الأمريكية. كان لهذا الدافع أصداء قوية لدى عرب أمريكا.

استعادة أو استرجاع نوع من الهوية العربية الأمريكية عملية شبيهة من نواحٍ كثيرة بالمسارات الاجتماعية لجماعات عرقية أخرى، وقابلة، بالتالي، لأن يُنظر إليها بوصفها أنموذجية بالنسبة لآليتي المثاقفة والتجريد من الثقافة الأمريكيتين. غير أن العلاقات الدولية، هي الأخرى، لعبت دوراً بارزاً في عملية بناء وتعزيز الجالية العربية الأمريكية بوصفها وحدة اجتماعية وسياسية. ما من شيء كان أكثر إثارةً لاهتمام عرب أمريكا منذ عام 1967 من النزاع الإسرائيلي - الفلسطيني، على الرغم من أن العراق هو

الآخر بات محورياً منذ عام 1990. طالما أثار الدعم الأمريكي لإسرائيل حفيظة عرب أمريكا (وغضب آخرين)، بما وفر لهؤلاء - عرب أمريكا - شعاراً ملموساً للحشد والنضال السياسي. كذلك كان الدعم قوة لحّم ذات شأن بالنسبة إلى جالية بعيدة، بالرغم من الإدراك الشائع، عن أن تكون متجانسة إذ تضم أناساً ينتمون إلى ما يزيد عن 20 خلفية وطنية، حشد من اللهجات اللغوية، والعديد من المذاهب والأديان. وبالتالي، فإن فلسطين ربما أسهمت في دفع عجلة عملية انبثاق هوية عربية أمريكية متماسكة، ولكنها ليست العامل الوحيد الذي يملي هذه الهوية ويصونها. مثل أي جماعة عرقية أخرى، يتصرف عرب أمريكا بوصفهم كياناً طائفياً قائماً على العديد من الركائز الثقافية والسياسية على حدٍّ سواء.

يمكن، آخر المطاف، أن يقال إن ليس ثمة أي حدث قام وحده بتحديد مصير عرب أمريكا أكثر من 9/11. فبعد هذا التاريخ باتت الأضواء مسلَّطة بقوة على الجالية العربية الأمريكية. وقد عكس هذا الاهتمام تحولاً كبيراً بل وانقلاباً عاصفاً في وضع الجالية السابق؛ لأن منابر التيار الرئيس نادراً ما كانت، خلال المراحل التي كان عرب أمريكا يحاولون فيها لفت الأنظار - عموماً خلال أزمان ذات علاقة بقضيتنا المركزية: استقلال فلسطين - تعترف بنا أو تقر بوجودنا. ولم يكن الاعتراف بالعرب يتم عادةً إلا على صعيد السخرية، الازدراء، الإهمال، أو العنصرية المباشرة التي طالما عُدت طريقة غير مقبولة في مقاربة جماعات عرقية أخرى. ثمة قاعدة تشي بأن من شأن التناقض أن ينشأ لدى إغراق جالية مهملة من قبل أو مشهّر بها صراحة في بحر دائم من الاهتمام على نحوٍ

مفاجئ ومطالبتها بتحديد وإعادة تحديد هويتها يومياً. والطابع الاستثنائي للاهتمام المفاجئ عقب 9/11 فعل فقط ما هو أكثر من ذلك على صعيد بَلْوَرة عرب أمريكا وتحويلها إلى أهداف نظرات استبطان بالغة الجدية. كان الاهتمام في الوقت نفسه تدفقاً لفيض من العداء والمودة. ففي يوم الهجوم، سارع رود جولياني وجورج بوش إلى حض الأمريكيين على عدم الانخراط في أي عنف عنصري وعلى الحلول دون ما يمكن أن يحصل منه، كما فعل، عملياً، كل معلق تلفزيوني وسياسي ذي شأن. مقابل كل تعليق أو تقرير عنصري، كان هناك عشر قصص عن "أمريكيين" بسطاء خرجوا على المألوف وراحوا يطمئنون جيرانهم العرب ويرحبون بهم.

ولكن ما الذي تكشف عنه بالفعل جملة تلك البيانات حول الثقافة التي أنتجتها والطائفة التي استهدفتها؟ وكيف كانت تأثيراتها في الطرفين؟ أولاً، مع أنها كانت، في بعض الحالات، صادقة لدى صدورها عن سياسيين وربما صادقة في جميع الحالات لدى صدورها عن مواطنين عاديين، فإن الدوافع الملهمة لها لا يمكن عدها بريئة مئة بالمئة؛ لأنها كانت مستمَدة على نحوٍ مضمر من معين تقاليد إذابة قسرية في البوتقة. (إشكالي أيضاً أن مثل هذه البيانات كانت بحاجة إلى تكرار مطرد قبل كل شيء). مع أنه من المتعذر التشكيك بحسن نوايا بسطاء الأمريكيين، قد يكون المرء ميالاً إلى النظر في جوانب من خطاب القادة الأمريكيين بقدرٍ من الريبة. فقد ظل هؤلاء جميعاً، معادون للإذابة والثوريين على حدٍّ سواء، يلحون، قبل 9/11، في المطالبة بالإذابة الشاملة في البوتقة. في هذه الحالة لم تكن العملية إذابةً قسرية كالتي تعرضت

لها جماعات عرقية أخرى، مثل السكان الأصليين في المقام الأول. كانت تأخذ شكل بيانات متكررة من قبيل: "هم أيضاً أمريكيون"؛ "إنهم أمريكيون مثلكم تماماً"؛ "هم أيضاً يحبون هذا البلد ويعشقونه". لابد من التوقف قليلاً عن الريبة التي أتيت على ذكرها. لا تستطيع أي جالية أن تقبل الدعوة، ملتَمَسة أم لا، إلى الانغماس الكامل في سياسة مجتمعها المحيط إلا إذا افترضت أن سياسات هذا المجتمع قابلة للتوظيف في خدمة مصالح هذه الجالية. لم يسبق لهذا أن كان هو الوضع في أي وقت من الأوقات بالنسبة إلى عرب أمريكا؛ لأن الحكومة الأمريكية طالما تورطت في العالم العربي بأشكال وصيغ يعدها جل عرب أمريكا عدوانية وظالمة. يضاف إلى ذلك أن تشريعات فظيعة مثل قانون المواطن الأمريكي تتناقض كلياً مع اللغة الاستيعابية الاحتضانية الصادرة بين الحين والآخر عن الكونغرس وإدارة بوش.

غير أن قانون المواطن لم يكن إلا المبادرة التشريعية الأولى مما يخشى عدد كبير من أساتذة القانون من أن يكون سلسلة قرارات اتحادية تفرض قيوداً قاسية على الحريات المدنية. ففي كانون الثاني/ يناير 2003، نشر بل مويرز على موقع ناو (NOW) الإلكتروني نص قانون تعزيز الأمن الداخلي (DSEA) (المعروف أيضاً باسم قانون المواطن الثاني)، الذي سيضاعف من قدرة الأجهزة الاتحادية وموظفي المخابرات على التدخل في حيوات الناس الخاصة واحتجازهم لفترات زمنية غير محدودة دون مسوغ حقوقي استناداً إلى مجرد الاشتباه. ومثل هذا النمط من التشريع قد لا يبقى، بعد وقتٍ قصير، محصوراً بالزوار، المهاجرين، أو

المقيمين الدائمين. بات المواطنون الأمريكيون أنفسهم أيضاً تحت المراقبة. في شباط/فبراير 2003، كشف ديفد كول من النيشن عن هدف قانون (DSEA) الجديد، إذ كتب يقول:

> *حمل قانون المواطن هذا الاسم للدلالة على أن أولئك الذين يشككون بصلاحياته الكاسحة الجديدة على أصعدة المراقبة، الاحتجاز والملاحقة ليسوا إلا خونة، أما قانون (DSEA) الجديد فيخطو خطوة كبيرة إضافية على الطريق نفسها. يقول إن أي مواطن، وإن كان مولوداً هنا، يدعم حتى النشاطات المشروعة لأي منظمة يعدها الفرع التنظيمي منظمة "إرهابية" يجرد افتراضياً من جنسيته. إلى الآن ظلت "الحرب على الإرهاب" موجهة في المقام الأول إلى غير المواطنين من العرب والمسلمين خصوصاً. غير أن من شأن (DSEA) أن يؤدي فعلاً إلى جعل المواطنين ذوي العلاقة بجماعات "إرهابية" غرباء*[10].

ويلاحظ كول لاحقاً أن المواطنين المشبوهين "من شأنهم، بعد ذلك أن يتعرضوا للترحيل الذي من شأن قانون (DSEA) أن يوسعه ليمنح المدعي العام صلاحية ترحيل أي شخص لا يحمل الجنسية يعد وجوده تهديداً لـ "دفاعنا القومي، سياستنا الخارجية أو مصالحنا الاقتصادية"[11].

باتت الأجواء الداخلية، إذن، بيئة مرعبة للعديد من عرب أمريكا وتبعدنا عن السياسة، خصوصاً السياسة الفلسطينية؛ لأن

obeikandl.com

الخوف من التعرض للإزعاج أو الاعتقال أكثر من مجرد رهاب مرضي. في الوقت نفسه، أعداد كبيرة من عرب أمريكا تشعر بأننا محرومون من أي قيادة حقيقية نستطيع التعويل عليها. لا أحد يعبر عن هواجسنا بصدق في وسائل الإعلام ولا أحد يتوفر على ما يكفي من النفوذ لحمايتنا من تحقيقات الإف بي آي إذا ما وردت أسماؤنا في قوائم المشبوهين لدى الدوائر الرسمية الأمريكية. لدى عرب أمريكا - كما لدى آخرين كثيرين - انطباع بأن من شأن الكلام بصوت مرتفع ضد الحرب على الإرهاب أو تأييد أمريكا لإسرائيل أن يشكل سبباً وجيهاً للاشتباه، يضاف إلى ذلك أن عرب أمريكا لا يستطيعون أن يناقشوا في المدن الجامعية أوضاع حياة الفلسطينيين في المناطق المحتلة دون التعرض للمضايقات، دعاوى معاداة أمريكا، أو اتهامات باللاسامية وهذه هي الأسوأ.

جميع القضايا المذكورة أعلاه ظهرت في الأدب العربي - الأمريكي، كتابات الأدباء من عرب أمريكا. بعد 9/11 مباشرةً نظمت الشاعرة الفلسطينية الأمريكية سهير حماد قصيدة واسعة الانتشار بعنوان "الكتابة الأولى منذ"، استكشفت انتماءها العرقي المشترك مع المختطفين وانتماءها القومي - الوطني المشترك مع ضحاياهم. ومجلة **مزنة (Mizna)** الأدبية التي يصدرها عرب أمريكا نشرت قصائد، قصصاً قصيرة، ومقالات تعالج تأثيرات 9/11 في هوية عرب أمريكا وفي العلاقة بين عرب أمريكا وأشقائنا العرب (العدد الأول بعد 9/11 كُرس، كله، للهجمات). الموضوعات ثابتة وتفوح منها رائحة الأستذة عادة: يشعر الكتّاب بأنهم أقرب إلى الكيان السياسي الأمريكي ومنعزلون عنه في

الوقت نفسه. ذلك النوع من الطرح يشي - كما قال بل آشكروفت وبال أهلواليا في وصف إدوارد سعيد - بمفارقة الهوية[12]. خلال السنة التي أعقبت 9/11 لم يتم نشر أي دراسة نقدية لمسألة الهوية في الجالية العربية الأمريكية في أي مجلة سوسيولوجية، سايكولوجية، تاريخية، أو أدبية، باستثناء وحيد: مجلة **ميدل إيست ريبورت** مكرسة لتأثير 9/11 في عرب أمريكا ومسلميها[13]. وهذا النقص في البحث النقدي ينطوي - بالطبع - على قدرٍ كبير من الإشكالية؛ لأن الجالية العربية الأمريكية تواصل تعزيز تناقضنا عبر السماح للمجتمع المهيمن بتحدينا والحديث باسمنا. يبدو عرب أمريكا موشكين على الاقتباس من الحساسيات السائدة بين صفوف الباحثين والجماعات العرقية الأخرى حين يعلنون أن الأولوية في الكلام عن قضايا الجالية يجب أن تكون لعرب أمريكا بقطع النظر عن مدى حسن نية المتحدث. كثيراً ما يجد المرء مثل هذا النزوع معبراً عنه في الأدب؛ لأن عدداً كبيراً من عرب أمريكا يرون الأدب ملاذ التعبير الأخير الذي لا يزال عائداً إليهم. ثمة مجلات ثقافية مثل: **مزنة**، **جسور JUSOOR**، **والجديد** باتت، بالتالي، عظيمة الأهمية لدى الجالية في السنوات القليلة الماضية.

"نمط الحياة الأمريكية".

قبل بضع سنوات، نشرتُ زاوية في **بالستاين كرونكل** داعياً عرب أمريكا إلى إعادة صياغة صورة ذاتية عبر رفض قاموس **الإرهاب** المستخدم بهذا القدر اللانقدي المتعسف في ولايات اليوم المتحدة. درجتْ مقالاتي في الصحيفة على استثارة ردود أفعال

قوية، غير أن هذه أثارت غضباً مباشراً لدى عدد قليل من القراء الأمريكيين الذين هاجمتُ مفرداتهم. أحدهم أراد أن يعرف السبب الكامن وراء قيامي بـ "شطر الزمن بين الولايات المتحدة والشرق الأدنى"، كما جاء في سيرتي الذاتية. زعمتْ الرسالة أن الدوافع الخبيثة واضحة في مقالتي: "من الواضح أن كرهك لنمط الحياة الأمريكية [ولسياسة] الإدارة الراهنة الحريصة على إبقائه كما هو، ولو مقابل خوض الحروب، مشكلة بالنسبة إليك".

بعدد كبير من النواحي من شأن هذه الصياغة أن تسلط أضواء ساطعة على العلاقة الحقيقية القائمة بين عرب أمريكا والمجتمع الأوسع الذي نعيش في كنفه. فنحن عرب أمريكا نشعر أحياناً، جراء تكرر اتهامنا بازدواجية العواطف، كما لو كنا بعيدين (بإرادتنا الخاصة) عن العالم العربي، ولكن بعيدين بالقدر نفسه (رغماً عنا) عن الولايات المتحدة. من المؤكد أن رُهاب الأجانب يلعب دوراً في العزلة التي يشعر بها كثيرون من عرب أمريكا، غير أن من شأن حصر تحليلنا بأي من ظاهرتي رُهاب الأجانب أو العنصرية أن يكون تجسيداً للحماقة. ومع أن ذلك الذي رد على مقالتي يعاني من داء رهاب الأجانب وربما علة العنصرية أيضاً حسب أقوى الاحتمالات - هل كان سيعترض لو قسمت الزمن بين الولايات المتحدة وبريطانيا، مثلاً؟ - فإن حساسياته يمكن أن تُعزى لظاهرة أكثر عمقاً تعود إلى تاريخ استيطان العالم الجديد.

أتحدث عن نمط خاص من الخطاب الذي ظل - مع تنوعات تقنية وزمانية - موجوداً باستمرار في الولايات المتحدة والذي أطلق

عليه خطاب **الوطنية الإلزامية**. هذه الوطنية تفترض (أو تفرض) أن المخالفة في أمور الحكم والسياسة الخارجية لا وطنية وبالتالي مدانة. وهي مستمدة من حساسية عريقة ترى عدم الامتثال لكل ما هو محسوب في العصر المعني "المصلحة الوطنية" إن هو إلا سلوك لا وطني. ومثل هذه **الوطنية الإلزامية** تنشأ أكثر الأحيان في مجتمعات مستوطنين، تكون عادةً بحاجة إلى إيجاد ذهنية قضائية تسلم بنوع من التفويض السماوي أو الإلهي لشرعنة وجودهم وفرض هذا الوجود المشرعن على أهل الأرض الأصليين. تمارس الذهنية القضائية فعلها وتضفي الامتثال على المستوطنين الذين قد يعترضون - في غياب مثل هذا الامتثال - على مطالبتهم بذبح السكان الأصليين أو التصدي لهجماتهم. يقوم هلتون أوبنزنغر بتسليط الضوء على أن هذه الذهنية وُجدت في أمريكا المبكرة حيث حرص المستوطنون على "إضفاء نوع من الإحساس بالقدر الديني على استيطان نيوانجلند، وكل أمريكا استطراداً: بمعنى أن المجتمع الجديد لم يكن - في إجهازه على سائر دعاوى الأقوام الأصلية المختلفة المتعلقة بالأرض والاستقلال - إلا إعادة خلق لقصة الكتاب المقدس عن هوية الشعب المختار الميثاقية"(14).

ما لبثت هذه الحساسية أن تطورت إلى سمة قابلة للتحري للسياسة الأمريكية الحديثة. فحين يسمع المرء جورج دبليو بوش وهو يتحدث عن الحرب على العراق بوصفها "حرباً للدفاع عن الحضارة" ويطلق تصريحات من قبيل "أنتم إما معنا أو ضدنا" و"الرّبّ في صف أمريكا"، يتضح أن روح أوائل المستوطنين - حيث كان الأخيرون مكلفين برسالة سماوية - مازالت تفعل فعلها في

الخطاب الأمريكي - وفي الأخلاق الأمريكية، وهذا أهم. هذه هي التربة التي تُنْبِت **الوطنية الإلزامية**. وأنا أفضل تعبير **الوطنية الإلزامية** هذه على كلمة **الوطنية** السائبة دون تحديد، لأن كلمة **الإلزامية** توحي بالضرورة والاستهداف. تشي أيضاً بباقة خاصة من الرغبات الأمريكية (المدرجة أدناه) التي تشكل جسراً يوصل بحركية تاريخية معينة. وفي أمريكا الحديثة نرى أن الوطنية الإلزامية، التي تمارس تأثيرها على مستويي الفكر والفلسفة، تولد قوتها بأكثر الصيغ اطراداً على مستوى الأخلاق. تتجلى الوطنية الإلزامية بأوضح صورها زمن الحرب أو الاضطراب الداخلي. والحركات العرقية القومية، الشبيهة بحركة الهنود (الحمر) والفهود السود، عُدت على نطاق واسع معادية لقيم أمريكا مما جعلها تتسبب في انبثاق الوطنية الإلزامية. (حتى حركات تتبنى شعارات أقل تعصباً قومياً مثل اتحاد سيزار تشافيز للعمال الزراعيين (SCLC) أثارت الفزع في قلوب أمريكيين كثيرين). يضاف إلى ذلك أن الوطنية الإلزامية تُغني الخطاب الكولونيالي من ناحية وهي مستمدة من هذا الخطاب من ناحية ثانية. يتكرر كلام الساسة عن الحاجة إلى احتلال بلدان عربية و"تمدين"ها عبر إيصال السكان إلى "الديمقراطية". (مثل الخطاب الاستعماري قبله يأتي هذا الخطاب على ذكر الدافع الفعلي للتدخل: نهب الثروات، النفط في هذه الحالة). فالأمريكيون اليوم مثل الأوربيين في الماضي، يسمعون أشياء كثيرة عن الحاجة إلى "قيادة" حكومتهم في جميع مناطق العالم تضع آلياً إشارة المساواة بين الاستعمار من جهة والكرم مع القوة الأخلاقية من الجهة المقابلة.

ومع ذلك فإن السمة الأكثر خطورةً (والأشد إرباكاً) للوطنية الإلزامية هي علاقتها برُهاب الأجانب. مع أن للوطنية الإلزامية نوعاً من الارتباط المعنوي العضوي مع الخطاب الكولونيالي، فإنها أكثر تفلتاً من براثن رُهاب الأجانب لأنها لا تخرج من رحم هذا الرهاب مباشرةً، الذي هو ظاهرة تمتد جذورها، بحدود معينة، إلى احتكاك الأوربيين بالهنود (الحمر)، ولكنها ناجمة، على نحوٍ أكثر تقليدية، عن الخصومة حول انعدام التكافؤ (الوهمي أو الواقعي) على الصعيد الاقتصادي. على أحد المستويات، يبقى رهاب الأجانب أقل سوءاً من الخطاب الاستعماري، غير أنه أكثر ترتباً على نمط معين من الخوف المتولد عن تعرض الناس للإحساس بأن استقرارهم الاقتصادي (أو احتماله) بات مهدداً - كما حين يشتبك العمال مع المهاجرين في صراع على فرص عمل الياقات الزرقاء أو حين يتذمر البيض من منتسبي الطبقات الوسطى إلى العليا لدى مجالس المدن عن توغل المهاجرين في أحيائهم السكنية، مثلاً. إلا أن الوطنية الإلزامية تميل، على أي حال، إلى إغناء رهاب الأجانب، وتلك حقيقة تتجلى في تصريحات معينة من قبيل: "إذا لم تكن تحب أمريكا، فعد إلى المكان الذي جئت منه!"؛ "إذا لم تكن موافقاً على ما تفعله الولايات المتحدة، فلماذا لا ترحل مباشرةً؟"؛ و"أي أمريكي حقيقي يجتهد ولا يشكو". ومثل هذه التصريحات تشي بأن "الأمريكية" قدرٌ راسخ، ثابت متجذر في تربة مادية وثقافية بيضاء لا يرقى عدد كبير من المهاجرين إلى مستواها. وهي تشير أيضاً إلى أن من شأن افتراضات سياسية ضيقة أن تتحكم، في الكثير من الأحيان، بالسلوك الاجتماعي في ظل رهاب الأجانب: فمخالفة

معايير أمريكا المتخيلة إن هي إلا تبديداً للهوية الأمريكية، مما يبقي الرحيل عن الولايات المتحدة الخيار المنطقي الوحيد.

من السهل تحري بيان هذه الافتراضات في شكوى القارئ من أنني "أكره نمط الحياة الأمريكية". فالقارئ يفترض أن صيغة واحدة أو بضع صيغ فقط من صيغ الفكر و/أو السلوك تؤسس لـ "نمط الحياة الأمريكية". مثل هذه الحساسية طالما كانت شائعة في الولايات المتحدة وقد تكاثرت منذ 9/11 لأسباب تعود في جزء غير قليل منها إلى الخطاب الاستعماري الصادر عن سرب من الصقور في واشنطن. ومع ذلك فإن من شأن إرجاع الحساسية إلى رهاب أجانب فج قائم على الوطنية الإلزامية أن يكون وقوعاً في مطب النزعة الاختزالية. لعل من الأفضل فهمها بوصفها مفصلة لوطنية إلزامية تبدو من النظرة الأولى كما لو كانت رهاب أجانب فجاً، غير أنها، في الحقيقة، تذكر ببقايا خطاب استيطاني مع تياراته القضائية الكامنة في العمق. قد يجادل المرء أن من المستحيل تعريف "نمط الحياة الأمريكية" لأن الولايات المتحدة مجتمع متعدد الثقافات يحتضن آلاف الثقافات الفرعية (بله حقيقة أن العديد من أمريكيي الأمريكتين الوسطى والجنوبية يعدون أنفسهم "أمريكيين"). غير أن من المفترض، على المستوى الشعبي، أن يكون أي أمريكي "حقيقي" هو، (أو يجب أن يكون) وطنياً ورأسمالياً، ومسيحياً وأبيض، على نحوٍ أقل صراحةً.

عرب أمريكا موجودون بوصفهم تزاوجاً بين روح أمريكية منتمية إلى ما بعد الحداثة وثقافة فرعية أمريكية في هذا المجمع

من القضايا. إلى درجات مختلفة ظل تحديد موقعنا في الولايات المتحدة شديد التعقيد لبعض الوقت، غير أن 9/11 سارع إلى مفاقمة جملة التعقيدات عبر إغراق الجالية بسيل من التعاطف من ناحية وبفيض من تجليات رهاب الأجانب المتعاظمة على شكل نزعة وطنية إلزامية من ناحية ثانية وفي الوقت نفسه، في أجواء فكرية متناقضة مئة بالمئة مع طبيعة تجربة عرب أمريكا بالذات. والمفارقة الساخرة التي ينطوي عليها مثل هذا الوضع تجلت بوضوح حين أقدمت إحدى كنائس جاكسونفيل، التي يعيش فيها عدد لا بأس به من عرب أمريكا، على تعليق لافتة تحمل عبارة تزعم «أن محمداً كان يغض النظر عن جرائم القتل». ومع أن عرب أمريكا احتجوا على هذا التنميط، فإن الرد الأقوى والأعلى صراخاً جاء من محافظ مسيحي، معلق إذاعي، يدعى آندي مارتن من فلوريدا، إذ قال: "كنت أظن أننا تجاوزنا ذلك النوع من التعصب والجهل في فلوريدا. ولكن من الواضح أننا لم نفعل... أي قائد ديني يرعى التعصب ليس قائداً دينياً؛ إنه (ها) متزاوج (ـة) مع الشر".

من الصعب الحسم حول ما إذا كان الخطاب الذي ظهر في لافتة كنيسة جاكسونفيل قابلاً تماماً لأن يوضع في خانة العنصرية. **فالعنصرية** عبارة معقدة ومركبة، وباحثو الدراسات العرقية لا يخدمون فروعهم الأكاديمية كثيراً إذا ما طبقوها على نحوٍ فضفاض وموحد على قائمة طويلة من الظواهر السجالية. ولدى وصم خطاب جاكسونفيل بالعنصرية يتعين على المرء أيضاً أن يتساءل عن مدى اتصاف جميع الوطنيين الإلزاميين بالعنصرية. عندئذ نبقى مع أسئلة حول ما إذا كانت صيغ عنصرية معبر عنها

لا شعورياً شنيعة، على صعيدي النية والفعل، مثل العنصرية الحقيقية، الصريحة والمباشرة. رهاب الأجانب ينطوي على الهاجس نفسه. من شأن انتزاع هذه القضايا من سياقها وتجريدها من الروايات المؤسِّسة للولايات المتحدة أن يكون تجسيداً للحماقة. إذا كانت عملية التطهير العرفي والعبودية، بين ممارسات أخرى، قد اضطلعتا بدورٍ بارز في التشكيل المادي والنفسي للولايات المتحدة، فإن من الضروري، إذن، عدم حصول أي مفاجأة لدى رؤية أنماط مختلفة من العنصرية باقية. حقاً، يستطيع المرء أن يزعم أن الولايات المتحدة تعاني من مرض جماعي ناجم عن الإحجام الرسمي الدائم عن مجابهة حقيقة قيامها بتدمير مجموعة من الأقوام الهندية (الحمراء)، وهو مرض مسؤول، وعلى نحوٍ مجرد، عن عدد كبير من المشكلات الاجتماعية المتمادية (الوطنية الإلزامية، رهاب الأجانب، العنصرية، الجنوسة "التمييز ضد المرأة"، التمييز). لعل من الأفضل مساءلة المدى الفعلي لوجود هذه المشكلات بدلاً من الجدل حول حقيقة وجود أنماط مختلفة من العنصرية.

لعرب أمريكا موقع خاص يمكّنهم من المساهمة في مثل ذلك الفهم. قبل كل شيء، أميل إلى قول إن خطاب جاكسونفيل خطاب عنصري لأنه تحديداً غير قابل لأن يُجرَّد من سلسلة أحداث (أكثر بشاعة باعتراف الجميع) في ماضي أمريكا. ولدى النظر في مثل هذا النوع من الخطاب، يصبح إطار تحليلنا ملزماً بأن يشمل الخليط الاستثنائي الغريب الجامع بين ما قبل الألفية، المسيحانية، والتطرف، الذي طبع استيطان أوربا للعالم الجديد، ولاسيما

نيوانجلند. وعنصرية أمريكا الحديثة تطورت نتيجة صورة الهنود (الحمر) والأفارقة التي دأب المستوطنون البيض على نشرها - في عملية مازالت مستمرة إلى اليوم - إضافةً إلى التدخل الأجنبي والنزعة البيولوجية الحتموية. وبالفعل، فإن المسيحانية الموعودة التي ظل المستوطنون الأمريكيون الأوائل يُضْفونها على هويتهم تخترع ذاتها وتعيد اختراعها بالاستناد إلى مفاهيم عميقة الألغاز للتفوق العنصري. وتلك المفاهيم جرى تحديثها، مموهة أحياناً على شكل براغماتية، وهي ناجحة في اختراق نسبة استثنائية الضخامة من التيار الرئيس للخطاب الأمريكي. وبالتالي فإن وصمة **العنصرية** يمكن إلصاقها بسعار معاداة العرب بمعزل عن عملية التجريد القاسية من الإنسانية التي تترتب على وصم نبي إحدى الطوائف بالقتل. إذا ما جرى تصوير محمد كما لو كان دون البشر، فما الذي يمكن لذلك أن ينطوي عليه بالنسبة إلى أتباع دينه؟

من الواضح أن عرب أمريكا يتفاعلون مع الثقافة الأمريكية السائدة بالاستناد إلى خصوصيات الهجرة العربية والتطور اللاحق للجالية العربية الأمريكية. ولكننا، لحظة إنجاز العرب لتشكيل هوية طائفية مميزة، كما فعلت سائر الأقليات العرقية الأمريكية، ورثنا تاريخاً يغطي قروناً من الزمن من الصراع بين الأعراق والتيار الرئيس مازال ينتظر تقويماً تفصيلياً، قبل 9/11 وبعده على حدٍّ سواء. فالاستيطان، مصادرة الممتلكات، العبودية، وإمبريالية ما وراء البحار موجودة جميعاً في رصيد تلك التركة. وإمبريالية ما وراء البحار كانت تقليدياً ذات أصداء بالغة القوة في الجالية العربية الأمريكية وهي حجر زاوية إعادة بناء الجالية الراهنة. مثل أكثر

الأقليات الأخرى، يحرص عرب أمريكا على "امتطاء" التواترات العرقية الناشئة على نحوٍ فريد في الولايات المتحدة بالاستناد، في المقام الأول، إلى اضطهاد الزنوج والهنود (الحمر). غير أن الإمبريالية تبقى القضية الأكثر مباشرةً التي تواجه عرب أمريكا لأن جزءاً كبيراً من هذه الإمبريالية موجه نحو العالم العربي (ولاسيما إذا رأينا، كما أفعل أنا، احتلال إسرائيل للضفة الغربية وقطاع غزة وجهاً من أوجه الإمبريالية الأمريكية).

من هذا المنطلق، أرفض فكرة أن عنصرية معاداة العرب تشكلت وتطورت بالاستناد فقط إلى سمات اجتماعية (جيو - سياسية بالدرجة الأولى) قابلة للتحري في التفاعل بين العروبة والروح الأمريكية (الأمركة إذا جاز التعبير). لعل من الأجدى النظر إلى تلك العنصرية بوصفها امتداداً لجذور أمريكا المنغرسة في عمق الاستعمار الاستيطاني. ثمة استعمار استيطاني موازٍ في الضفة الغربية يشكل سبب جزء كبير من التوتر الحاصل بين الولايات المتحدة والشعوب العربية - وعرب أمريكا، استطراداً. من المؤكد أن العنصرية الأمريكية كانت قد ازدهرت طويلاً قبل وصول العرب إلى أمريكا الشمالية بسنوات وسنوات؛ وكان عرب أمريكا قد واجهوا تطوراً لتلك العنصرية منذ شروعنا في التعبير الصريح عن هوية شرق أوسطية معينة بعد 1967 (الأمر الذي أدى إلى إعادة قولبة بعض الأزمات المتطورة بين الآباء المؤسسين والقراصنة المسلمين بالقرب من شواطئ البربر قبل قرنين من الزمن). ليست هذه عنصرية حديثة بالضرورة، إلا أنها عنصرية تعرضت لسيرورة دائمة ومتواصلة من إعادة الصياغة استناداً إلى عواطف شعبية

وسياسية معاصرة من جهة وإلى إخفاق القادة الأمريكيين في التصدي الناجح للماضي، فلسفياً عبر الاعتذار وبناء النصب التذكارية، أو عملياً من خلال اجتثاث الاستعمار ومصادرة الأملاك في الأجزاء الأخرى من العالم.

وهكذا فإن 9/11 لم يقم في الحقيقة، حسب هذا التحليل، بإحداث انقلاب في مسيرة عنصرية معاداة العربية بأي أسلوب عاصف. لعله، بالأحرى، أحدث استقطاباً في المواقف التي كانت موجودة قبل أن تصبح كلمة **الإرهاب** دارجة على كل شفة ولسان. صحيح أن 9/11 أجبر أكثرية الأمريكيين على التصدي لقضايا معينة - السياسة الخارجية، الحريات المدنية، الهجرة، حقوق الأقليات - كثيراً ما كانت قد تعرضت للكبت أو التجاهل، غير أن مساراً ملحوظاً وملموساً لما قبل 9/11 أعاد تأكيد نفسه: أولئك الميالون إلى العنصرية أو رهاب الأجانب فيما قبل 9/11 (دعاة الوطنية الإلزامية بالدرجة الأولى) اهتدوا إلى ما يسوغ ميولهم؛ أما أولئك الميالون إلى تأييد التعددية الثقافية (ليبراليو اليسار وأكاديميو الفنون الليبراليون في المقام الأول) فسارعوا، بالمقابل، إلى توظيف نكسة 9/11 ضد عرب أمريكا دفاعاً عن العدمية القومية (الكوزموبوليتية) وحفاظاً على الحريات المدنية. فرئيس تحرير **النيو ريبابليك** مارتن بيرتز، مثلاً، دأب، وباطراد، على الخلط بين الإسلام والإرهاب. أعلن في 1995 "أن هناك تشنجاً في الإسلام، يشكل الإرهاب تعبيره الخاص"[15]. ومحذراً الأمريكيين من "ظاهرة جهاد دولية قائمة على القتل حقيقية جداً" كتب لاحقاً

يقول: "كان جزء كبير من الموجة الإرهابية التي شهدها العالم [في الماضي] من صنع العرب"[16].

لعبت هذه المشاعر دوراً كبيراً في خلق ذلك النوع من ثقافة رُهاب الأجانب التي أفرزت سلسلة هجمات مادية - أفضت، في بعض الحالات، إلى القتل - ضد عرب أمريكا ومن بدوا كما لو كانوا عرباً أمريكيين (مثل السيخ، ذوي الأصول العائدة إلى جنوب آسيا، أو آسيا الوسطى، وذوي الانتماءات الإسبانية أو اللاتينية)، من قبل أمريكيين مصممين على صيانة الوطنية الإلزامية. وبعد أربع سنوات من مقال بيرتز، وفي مادة ذات عنوان بالغ الحدة: "الإرهاب والتعدد"، قام جوشوا مورافتشيك بترديد أصداء كلام بيرتز إذ أعلن أن "صورة إرهابيي الشرق الأدنى الدائبين على زرع الرعب والخراب في شوارع أمريكا باتت طاغية وشديدة الإقناع"[17]. وبعد 9/11، استمرت القائمة ذاتها من الصور النمطية المرسومة بمفردات شبه طفولية - "جهاد دولي قائم على القتل؟". دون أي رادع، ولكن مع مجاز بلاغي عده الكتاب معصوماً عن الخطأ هذه المرة. فالنائب هاوارد كوبل (ديمقراطي من نورث كارولاينا) صرح في برنامج إذاعي أن اعتقال أمريكيين عرب جدير بالمناقشة لأن "بعض عرب أمريكا هؤلاء عازمون، ربما، على إلحاق الأذى بنا"[18]. استخدام كوبل لضمير "نا" جدير بالملاحظة. يشي ذلك، تماماً كما فعلت الرسالة التي تلقيتها رداً على مقالتي في **الكرونكل**، بأن عرب أمريكا ليسوا، حسب منطوق اتنوغرافيا الوطنية الإلزامية، أمريكيين فعلياً. فضمير "نا" يعني الاختلاف، الغيرية، على الرغم من أن كوبل قد تناقض مع منطقه اللغوي

الخاص إذ أضاف كلمة "أمريكا" بعد كلمة "عرب" جنباً إلى جنب مع ضمير "نا" في الجملة ذاتها. كذلك. يساهم استحضار كوبل لقصة يابانيي أمريكا في إلقاء الضوء، بوضوحٍ مرعب، على حقيقة وجود مواقف سلبية من عرب أمريكا باستمرارية تاريخية تمخضت في مناسباتٍ كثيرة عن سلوك مثير للفزع.

غير معقول وبراغماتي

ليست عنصرية ما بعد 9/11 المفصَّلة أعلاه محصورة بتخبطات الساسة أو المنشورات الهامشية و/أو المتعصبة. لقد نجحت، مثلاً، في الوصول إلى ما بدا أولاً تحليلاً متوازناً للنزاع الإسرائيلي - الفلسطيني على صفحة الرأي في **الواشنطن بوست** لرئيس التحرير السابق ستفن إس روزنفلد. معبراً عن نزوع لافتٍ، وإن لاشعوري، إلى جوهرانية انتروبولوجية خليقة بالقرن الجديد، يشن روزنفلد هجوماً على ما يطلق عليه اسم "الجناح القاتل لدى الفلسطينيين" عبر القول بأن أمضى أسلحة "الفلسطينيين هو معدل الولادات المرتفع لديهم. فهو يتمخض عن سيل غير قابل للإيقاف، على ما يبدو، من المراهقين المدربين على القتل"[19]. من حيث المنطلق ليس بيان روزنفلد مختلفاً عما طرحه في 2002 الكاتب المرموق دانييل بايبس حين قال: "بأبسط العبارات وأكثرها بدائية، نرى هنا [في المدن الجامعية] التناقض الصارخ بين الطابع المتحضر لإسرائيل وأصدقائها والبربرية الفجة لأعداء إسرائيل"[20]. جدير بالملاحظة أن بايبس، الذي تتجلى أدواته الأخلاقية في أسوأ وأبشع أوجه الوطنية الإلزامية، بقي، عموماً، منبوذاً بوصفه

من غلاة التطرف والتعصب حتى 9/11، يصبح بعده ذا شعبية لدى وسائل إعلام باحثة عن أدلة مثيرة على عدوان إسلامي أو طابور خامس، أمريكي عربي. (تهمة "الطابور الخامس" واردة في سائر مواد موقع بايبس، إذ يزوده بها قراء ساخطون يستنكرون حساسيات باحثين عرب وعرب أمريكيين). في الحقيقة يشكل بايبس، جنباً إلى جنب مع ستانلي كورتز، مارتن كريمر، ستيف إمرسون، وبل كرستول، إضافةً إلى ابتهال يردده قادة بروتستانت أصوليون، أنموذجاً للخطاب النمطي المتجذر في ارتداد ما بعد 9/11 العنيف على عرب أمريكا.

عن بايبس، يلاحظ يان لوستيك، أنه "يتبنى وجهات نظر لا يمكن لأي أكاديمي مسؤول أن يتفوه بها، بالمطلق. بعيد جداً هو عن التيار الرئيس للبحث العلمي، غير أن الشبكات [الإعلامية الأمريكية] بحاجة إلى أشخاص يعتمدون وجهات النظر هذه لأنها ذات شعبية. تستطيع وسائل الإعلام أن تجد المواقف المعقولة في جميع الأمكنة. غير أنها لا تبحث إلا عن المواقف غير المعقولة"(21). نستطيع أن نضيف إلى تحليل لوستيك ما يلي: فما يقول عنه "موقف غير معقول" يكون، بعد 9/11، معقولاً مئة بالمئة تبعاً لبراغماتية ثقافة سياسية اهتدت فجأة في عرب أمريكا إلى ذريعة تسوّغ مضاعفة التدخل الاتحادي في الحياة المدنية الخاصة عن طريق زرع الخوف والعمل بعد ذلك لاختزال ذلك الخوف عبر ما هو مبرر من الوسائل العملية مثل البيان العرقي، المسح، التجسس على المواطنين، الاعتقال - أشياء حدثت راهناً على امتداد التاريخ الأمريكي الحديث (مع حركة الهنود (الحمر) والفهود السود، في

المقام الأول). وهذه الوسائل جميعاً إن هي، بالطبع، إلا وسائل مستخدمة، مع التظاهر بقدرٍ كبير من الأسف، من أجل الحفاظ على "نمط الحياة الأمريكية" ذلك النمط المجرد إلى حدٍّ الاستحالة ولكن الضروري إلى حدٍّ كبير (وهذه عبارة لا يكف بايبس وامثاله من الكتاب عن استخدامها). أميل إلى إبدال استخدام لوستيك لعبارة "غير معقول" باستخدام كلمة "براغماتي". فالوطنية الإلزامية تعوّل على البراغماتية المتصورة التماساً للمشروعية الأخلاقية. ولعل أكثر سمات البراغماتية حضوراً اليوم هي كلمة **إرهاب** التي تُستخدم دون تدقيق لوصف أي شخص (من الخلفية العربية المطلوبة) يحاول الاعتراض على الهيمنة الأمريكية على الصعيدين الداخلي أو الدولي. جملة من الافتراضات يجب أن تكون موجودة بين المتحدث والجمهور حين يتم استخدام **الإرهاب** دون تحليل أو توصيف. وتلك الافتراضات، القائمة على فكرة أن الإرهاب عمل مقيت أخلاقياً وغير قابل للتفسير محصور بالشرق، لم تعد موجودة إلا في إطار فرضية موازية، ألا وهي أن العرب متخلفون ثقافياً وذهنياً عن الأمريكيين (اقرأ: البيض).

كما قلتُ من قبل، لم يتمخض 9/11 عن هذه الافتراضات، وإن أضفى عليها بالفعل مشروعية براغماتية لخدمة دعاة الوطنية الإلزامية الميالين سلفاً إلى تبني عنصرية معاداة العرب. طالما كانت النمطيات الكامنة وراء الافتراضات موجودة ويتم التعبير عنها عبر الثقافة الشعبية الأمريكية في التلفزيون والسينما بين وسائل أخرى، كما جاء في مجلة سينياست[22] وعل لسان الناقد جاك شاهين[23]. ففي دراسة تفصيلية لـ "صورة العرب" في الولايات

المتحدة، قام رونالد ستوكتون بمسح مئات حالات تمثيل العرب في مختلف الوسائل، بما فيها بيانات سلبية صادرة عن رؤساء جمهورية وكبار رسميين حكوميين، واستنتج أن "العربي الأصلي يتقاسم مع اليهودي [المنمط] شفتين غليظتين، عينين خبيثتين شعراً أشعث، لحية وضيعة، حنكاً رخواً، أنفاً معقوفاً، نظرة لئيمة. ويتقاسم أيضاً مع الزنجي [المنمط] شفتين غليظتين، ملمحاً ثقيلاً، تعبيراً بليداً، كتفين مهدودتين"[24]. يرى ستوكتون "أن صور العرب تتعذر رؤيتها معزولة، بل هي مشتقة في المقام الأول"[25] ويبين المخاطر الكامنة في الصور العرقية السلبية:

> *من المهم أن نتذكر أن الحكومات تتصرف ضمن معايير محددة بما يمكن للجمهور أن يطيقه، على الرغم من أن السياسات الحكومية ليست مجرد إفرازات للرأي العام. إذا كان الجمهور راغباً في تجريد كتلة سكانية ما من إنسانيتها - محلية كانت أم أجنبية - فإن هامشاً واسعاً يكون متاحاً فيما يخص حقوق الإنسان. وعندئذ تصبح العبودية، الحرب الوحشية، القتل الجماعي، الاغتيال، وعدم المبالاة بالمعاناة أموراً تحظى بقدرٍ أكبر من القبول*[26].

يقدم ستوكتون، الذي نُشرت مقالته في 1994، تحليلاً مشحوناً بالتحذير، خصوصاً بالتنبيه إلى حقوق الإنسان الناضبة واللامبالاة بالمعاناة. في العام نفسه حذر نبيل أبراهام بالمثل من أن "عنصرية معاداة العرب... تخترق جملة مؤسسات التيار الرئيس الثقافية

والسياسية" في الولايات المتحدة[27]. لعل استحضار ستوكتون للأنماط اليهودية جديرة بالملاحظة، لأن المفارقة الساخرة شاءت أن تكون عنصرية معاداة العرب مستمدة من المواقف نفسها التي أفرزت اللاسامية الأمريكية. وأنا أصف هذا الوضع بالمفارقة الساخرة لأن إحدى الطرق التي يعتمدها الأمريكيون اليوم لتهميش العرب هي وصمهم باللاسامية لدى محاولتهم التعبير عن تظلماتهم السياسية (المشروعة). يؤكد هذا المثال أن الوطنية الإلزامية قادرة على أن تطغى.

بالعودة إلى السياسة الخارجية نرى أن الولايات المتحدة كثيراً ما حملت مشاعر العداء للعرب منذ اشتباك القرن الثامن عشر العسكري بالقرب من شواطئ البربر وطالما كانت لها مصالح اقتصادية في الشرق الأدنى. لذا طالما بقيت في صراع مع دول عربية مختلفة، ولم تتح للنقاد، بالتالي، فرصة - أو دافع أحياناً - التخفيف من عنصرية معاداة العرب التي يتحدث عنها ستوكتون وأبراهام. لعل الأهم هو أن الثقافة السياسية الأمريكية لا تلهم عموماً بأي جدل اعتراضي ذي شأن، لأن تلك العنصرية قد تبدو شبيهة بصيغ تقليدية من العنصرية موجودة وراسخة منذ أيام استيطان أمريكا الشمالية؛ لذا فإن عرب أمريكا يشغلون موقعاً حاسماً، وإنَّ معقَّداً، في الولايات المتحدة الحديثة: تشي بكيف، أين وفي ظل أي ظروف يمكن لعنصرية قائمة على التحقير أن تنقلب من مضمرة إلى مكشوفة؛ وتوفر لباحثي الدراسات العرقية، الثقافية، وما بعد الاستعمارية طيفاً لافتاً من المسائل النظرية الجديرة بالتحليل، وجميعها محورية لفهم نظرية الأدب وتطويرها.

لأن عرب أمريكا يجدون صعوبة في التخفيف من عنصرية معادية للعرب تدعمها، جزئياً، هجمات يشنها عرب على الولايات المتحدة كما على المصالح الأمريكية في العالم العربي، نجدنا في إطار علاقة معقدة مع الثقافة الأمريكية المهيمنة، التي تزداد تعقيداً جراء السيول الجارفة من التعاطف التي غمرت عرب أمريكا بعد 9/11 مباشرة. (لا شك إن تلك السيول باتت متضائلة الغزارة على نحوٍ ملحوظ بعد خمس سنوات). وبالتالي، فإن عرب أمريكا يجسدون ما يطلق عليه جان فرانسوا ليوتار اسم **الملتبس**(*) (differend)[28]. ينشأ الالتباس حين يتفاقم صراع معين بين فريقين أو أكثر، ويصبح متعذر الحل جراء استخدام قاموسين متعارضين معبرين عن مشاعر غير قابلة للتوفيق فيما بينها، مما يدفع كل فريق إلى الإحساس بأن لغة الحوار تحول دون حصوله على حقه المشروع. أراد ليوتار أن يتمرد على كل من مفهوم اللغة الشاملة واستخدامها. كان يرى أن تجاهل الملتبس في التحليل الاجتماعي يضاهي التنكر للحق والعدل لأن مثل هذا الحذف أو الإسقاط يقوم على نكران الاختلاف. ليست الاختلافات التي ناقشها ليوتار أصلية أو محدودة سلفاً - بمعنى أن الاختلاف ليس سمة إنسانية غير قابلة للتغيير قائمة على الحيلولة دون التقارب أو الوحدة. لعل الاعتراف بالاختلاف - فعلاً وقولاً - يشكل، بالأحرى، شرطاً مسبقاً لمثل هذا التقارب أو الوحدة.

(*) differend: كلمة جديدة ابتدعها ليوتار للدلالة على حالة المختلف different الذي يجد نفسه في نزاع غير قابل للحل. صحيح أن كلمة "ملتبس" العربية ليست، ربما، الترجمة المثالية ولكنها تشي بظلال المعنى فيما أرى. (المترجم)

بتنويعات مناسبة، نستطيع أن ننظر إلى الملتبس لإلقاء الضوء جزئياً على العلاقة بين الأمريكيين وعرب أمريكا. يكمن جزء كبير من سبب التوتر الذي استكشفته في وجود قاموس مفردات خاص موجه ضد عرب أمريكا. وما إن يتم توظيف هذه المفردات لتفسير الثقافة العربية، أو "السلوك" العربي بأسلوب أكثر سببية، لجمهور شديد الفضول، حتى تصبح استثنائية الإرباك. ذلك هو المنعطف الذي يستغله عنصريو معاداة العرب، لابسين أثواب المحللين المسؤولين، للمسارعة إلى تسميم العلاقات بين الأمريكيين وعرب أمريكا. فحين يقوم جيش من الباحثين والمعلقين بإدانة العرب وعرب أمريكا بوصفهم "إرهابيين" وخطراً على "الأمن القومي الأمريكي" وعلى "نمط الحياة الأمريكية" إذا استخدمنا لغة عين المدن الجامعية الساهرة، يتنامى موقف دفاعي عميق في صفوف الجالية العربية الأمريكية. وهذا الموقف الدفاعي، مصحوباً بنوع من الازدواجية والتناقض العميقين إزاء هوية يصل إلى ما بعد الأطلسي، لا يلبث أن يسارع إلى تعزيز نفوذ الالتباس والملتبسين، الأمر الذي يفضي بدوره إلى مفاقمة وتعميق عجز عرب أمريكا عن الإبحار الناجح والمثمر عبر الفضاءات المجازية الفاصلة بين المركز والأطراف في الولايات المتحدة.

عرب أمريكا والدراسات العرقية

إن باحثي الدراسات العرقية شديدو الرغبة في استحضار جملة هذه التعقيدات ومناقشتها لتوسيع دائرة أسئلتنا المتوغلة في ديناميكيات أمريكا ما بعد 9/11 العنصرية والثقافية. وفي زمن غارق في بحر من مثل هذه السياسة المتوترة والحوار العنيف حول

obeikandi.com

إدارة الحكومة للشؤون الداخلية، نجد الولايات المتحدة دولة متغيرة بسرعة. والعديد من التغييرات ليست إلا نتيجة تأثير جالية صغيرة ولكنها محورية تمتد جذورها إلى منطقة أدت مداورة إلى إشعال نار عدد كبير من التحولات الداخلية المذكورة أعلاه. بوصفي أستاذاً جامعياً عربياً أمريكياً شاباً، أتصارع مع جملة هذه الأسئلة التي شغلت عدداً لا يحصى من باحثي جماعات عرقية أخرى: كيف أستطيع أن أرد رداً مناسباً على العنصرية الموجهة إلى جاليتي؟ كيف تتمكن تلك العنصرية من الدوام ومن التأثير في مختلف جوانب الثقافة الشعبية الأمريكية؟ ما الذي تستطيع جاليتي أن تفعله لتشجيع شبابها وباحثيها وتمكينهم؟ أين تدخل جاليتي في بانوراما تعددية أمريكا الثقافية الدائبة على التغير باطراد؟

ليست هذه أسئلة سهلة. ثمة صروح دراسات وفروع اختصاصية كاملة شيدت، آخر المطاف، على امتداد الأربعين سنة الماضية، من اجل استكشاف أبعادها - هذه الأسئلة. بالنسبة إلى عرب أمريكا، هناك أمر واحد يتميز بالوضوح. حتى إذا انطوى تأكيد صحة حلول المسائل على قدرٍ غير قليل من الصعوبة، فإن بلوغ اليقين حول تحديد نقطة البداية ليس صعباً: إنها متمثلة بخلق قاموس مفردات موجه نحو إزالة الالتباس الذي يحول دون الحوار المثمر مع الجماعات العرقية الأخرى جنباً إلى جنب مع مجمل الكيان السياسي الأمريكي. ولإيجاد مثل هذا القاموس لابد لعرب أمريكا من تحقيق النجاح في تحدي الأفراد الذين يحطون من قدرنا مثل آن كولتر، دون إيموس، جاك كافري، جو سكاربورو، مورتيمر زوكرمان، وساسة أمريكيين مختلفين.

كولتر، مثلاً، أشارت إلى الصحفية المخضرمة (والعربية الأمريكية) هلن توماس بوصفها "تلك العربية العتيقة" وأسفت لأن توماس تستطيع أن "تجلس على مسافة ياردات من رئيس الجمهورية"[29]. وعند وفاة ياسر عرفات، بادر إيموس إلى نعته بـ "نتن" و"جرذ" ساخراً من "عينيه الخرزيتين" وأضاف أن "جميع الفلسطينيين يشبهونه (كذا)"[30]. وقال سكاربورو عن عرفات "كان هذا، آخرا لمطاف، الرجل الذي اخترع الإرهاب الحديث في الشرق الأدنى كما كان، استطراداً، عرّاب الحادي عشر من أيلول/سبتمبر"[31]. أما كافري فزعم أن "العالم العربي هو المكان الذي يشهد اختطاف الأبرياء، عَصْبَ أعينهم، تكبيلَهم، تعذيبَهم وقطعَ رؤوسهم، والمبادرة بعد ذلك إلى نشر أشرطة فيديو لكل هذا على العالم وكأنَّ الفاعلين فخورون ببربريتهم. على نحوٍ ما، لن أكون كثير الاهتمام بحساسية العالم العربي". وقد أعلن أيضاً: "أنهم يعاملون النساء مثل الأثاث في البلدان [العربية]. لو كنت امرأة (كذا)، لفضَّلت أن أكون في زنزانة انفرادية أمريكية على العيش مع أحد أولئك هناك كائنين ما كانوا"[32]. وفي أحد اللقاءات مع فريق ماكلوخلين، ألمح مورتيمر زوكرمان نصف ساخر إلى أن ليس هناك في العالم العربي كله سوى مـثـقـفَـيْن اثنين[33]. في تموز/يوليو 2005 رأى النائب الجمهوري توم تانكريدو أن على الولايات المتحدة أن تقصف مكة، أرض المسلمين المقدسة، بالأسلحة النووية. "يمكنك، كما تعلم، مسح المواقع المقدسة (الإسلامية) من الوجود"، قال لمستضيفه الإذاعي بات كامبل، رافضاً فيما بعد أن يعتذر عما اقترحه[34].

ما سبيل التحدي الناجح لمثل هذا الاحتقار؟ يدخل هذا السؤال في صلب مجال الدراسات العرقية، حيث تضطلع الدراسات المتعاظمة التي تتناول عرب أمريكا بدور حاسم في عملية إغناء وترشيد جملة ثقافات أمريكا الشعبية والسياسية. في حين أن أعداداً غير قليلة من القضايا التي ناقشتها تنشأ بسبب ملامح محددة في العلاقة بين الأمريكيين العرب وغير العرب، فإنها ليست، بأي حال، الساحة الحصرية لمنتقدي عرب أمريكا. كانت موجودة قبل مبادرة عرب أمريكا إلى رفع أصواتهم بوصفهم جالية متميزة. وبما أن العنصرية التي يواجهها العرب موجهة أيضاً ضد أقليات أخرى، فإن من المنطقي، دون ريب، أن يعمل عرب أمريكا على إزالة وَهْم الصور النمطية ذات العلاقة بالأقليات التي كانت تقليدياً أهدافاً لسهام العنصرية. لعل الأهم، نظراً للتدهور الراهن الذي تشهده الحريات المدنية وسابقة المراقبة المكثفة للجالية العربية الأمريكية، هو الظهور بمظهر حماقة تجاهل عرب أمريكا بالنسبة إلى الجماعات العرقية الأخرى - وكثرة منها متهمة بالتخريب منذ أمد طويل. على أي حال، ليس أي رد فعل محدد على حدث بعينه (9/11)، بالضرورة، مثار قلق شديد بالنسبة إلى عرب أمريكا؛ إنه تراث ثقافي كامل متمثل بالوطنية الإلزامية - مع سائر تجلياتها المصاحبة لها - الموجودة قبل 9/11 بسنوات طويلة وتعززت فقط جراء القلق "المفبرك" الذي تعاظم في أعقاب الهجمات.

الأهم من ذلك هو أن الجالية العربية الأمريكية بعيدة عن أن تكون متجانسة سياسياً وعرقياً. ليس العرب الأمريكيون، جميعاً،

مثلاً، معارضين للحرب في العراق، بل يقدم بعضهم تبرعات سخية إلى الحزب الجمهوري. لسنا أيضاً متفقين بشأن الصراع الإسرائيلي - الفلسطيني؛ تتدرج الآراء من التدمير الشامل لإسرائيل، إلى الدولة ثنائية القومية، إلى استيعاب المستوطنات الإسرائيلية مقابل قيام دولة فلسطينية. بعض العرب المسلمين يفضلون الهوية "الإسلامية" على غيرها مما يضعهم في خانة جالية غير عربية بأكثريتها. وبالمثل، فإن مسيحيين لبنانيين كثيرين يفضلون الهوية "اللبنانية"، "المارونية"، "المسيحية"، أو حتى "الفينيقية" على الهوية "العربية" رغم أن الانتماء إلى الشرق الأدنى شديد الوضوح لدى مسيحيي لبنان على الصعيدين الثقافي والجسدي. وبما أن هؤلاء يؤلفون الكتلة السكانية الأكبر من عرب أمريكا - مع شخصيات لامعة مثل فرانك زابا، داني توماس، رالف نادر، خليل جبران، هلن توماس، جامي فار - فإن تعبير **عربي أمريكي** ليس واخزاً على الإطلاق. كذلك يُرى أن بعض أقباط مصر، جماعة سكانية متنامية في إقليم دترويت، باتوا يميلون بالمثل إلى عد أنفسهم "أقباطاً" قبل أن يكونوا "عَرَباً". وكذلك فإن الشرق أوسطيين من غير العرب يساهمون، كما أشرنا في المقدمة، في تعقيد الانتماء العرقي لعرب أمريكا، لأنهم كثيراً ما يصنَّفون، بموافقتهم أو تبعاً للنمط السائد، في خانة العرب. وتشمل قائمة الشرق أوسطيين من غير العرب كلاً من الإيرانيين، الأتراك، الأكراد، الأرمن، البربر، الشراكسة، وأهل آسيا الوسطى. ثمة يهود معينون من المزراح/ السفرديم في الولايات المتحدة يعدون أنفسهم أيضاً أصحاب شخصية ثقافية عربية، إما إضافة إلى، أو بدلاً من، هوية يهودية.

نظراً إلى هذه التنوعات، أجدني متردداً عند هذا المنعطف إزاء التنظير لتوجيهات جديدة في الجالية العربية الأمريكية، على الرغم من أن 9/11 كان ذا تأثير شديد الوضوح على درجات مختلفة في سائر المجموعات السكانية المنضوية تحت عنوان عرب أمريكا. انطلاقاً من هذه الحقيقة، لجميع عرب أمريكا مصلحة مؤكدة في معاينة الجالية وصولاً إلى صياغة مواد واستراتيجيات بحثية - أكاديمية تفضي إلى الوعي، التمكين، والمصالحة. يستطيع عرب أمريكا - ومعهم في الحقيقة كل مهتم وقلق إزاء المعاني العنصرية الكامنة في عمق النزعة الوطنية الإلزامية المتعاظمة بعد 9/11 - أن يبدؤوا بتعقيد التبسيط الذي تعاني منه المقولات العرقية التي تسوّغ براغماتية التدخل الأجنبي والحريات المدنية الناضبة. أشك أن يكون الحوار بين الأعراق، بدلاً من مكاشفة المجتمع المهيمن الذي يضفي المصداقية على عنصريي معاداة العرب، مكاناً مناسباً للانطلاق - منطلقاً من شأنه أن يوفر لأساتذة الدراسات العرقية مادة سياسية مهمة للمناقشة.

عرب أمريكا بعد وخلف

ليس عرب أمريكا دون أساس يمكّنهم من القيام بمبادرة سياسية وتحليل اجتماعي. ولسنا أيضاً غرباء عن جرائم الحقد جراء الخصومة الأمريكية - العربية. فقد نشرت النيشن، **الكويل، البروغرسف** (التقدمي)، **أخبار مدرسة الحقوق، النيوزويك، الإيكونوميست، وحتى الرياضية المصورة والنيو ريببلك**، قصصاً في العقود القليلة الماضية عن كيفية تعرض "عرب أمريكا لدى ارتفاع

درجات الحرارة" حسب تعبير جيمس أبو رزق "لفقدان حقوقهم"[35].
من قال إننا كنا غارقين في بحر من الصمت والظلام قبل 9/11 ؟! أظهر لورنس ديفدسون أن عرب أمريكا كانوا فعالين في مظاهرات الاحتجاج على الصهيونية منذ تواريخ مبكرة تعود إلى 1917، عام صدور وعد بلفور[36]. أما في الأزمنة الحديثة فقد كان عرب أمريكا موشكين على امتلاك نفوذ سياسي ذي شأن غير أن 9/11 قطع عليهم الطريق. على الطريق إلى انتخابات 2000 الرئاسية، نشرة **الكريستيان ساينس مونيتور، الوايت هاوس ويكلي، الميدل إيست، والإيكونوميست** مقالات عن كتلة عرب أمريكا السكانية تحت عناوين من قبيل "ميلاد لوبي عربي - أمريكي" و"بروز عرب أمريكا بوصفهم كتلة أصوات انتخابية مفتاحية"[37].

ثمة، مع ذلك، حشد من السمات غير المدققة التي، إذا ما تم إخضاعها للمعاينة، يمكن أن تفضي إلى فهم أكثر تطوراً لدور الجالية في شبكة التيار الرئيس للعلاقات العرقية المعقدة. فشعبية الهيب - هوب والاستخدام الواسع للهجات المدينية من قبل صغار السن من عرب أمريكا، مثلاً، يشيران إلى أن عرب أمريكا باتوا فعلاً "يمتطون ظهور" الزنوج في التعبير عن استيائهم من نوع من الاضطهاد يقرنونه بتاريخ الزنوج. فطبل الشيخ الحديدي يقرع بصخب عن تحرير فلسطين، اضطهاد عرب أمريكا، فقدان الحريات المدنية، والهوية العربية الأمريكية، ويقرن خطاب عرب أمريكا بطرق لافتة بمظالم مثقلة لكواهل الجاليات الإسبانية، الزنجية، والهندية (الحمراء). إن الشاعرة الفلسطينية العربية سهير حماد عضو في فرقة برودوي الاستعراضية لراسل سيمون

المعروفة باسم **دف بوترى جام**. وإدوارد سعيد، فلسطيني أمريكي آخر، كان ناقداً ثقافياً رائداً يتكرر توظيف صياغته الجديدة لمصطلح **الاستشراق** في الدراسات الأكاديمية المتخصصة بأوضاع الهنود (الحمر) والزنوج[38]. غير أن المحاولات العابرة للثقافات هذه ليست جديدة. فناشط حقوق الإنسان اللبناني - الأمريكي رالف جونز شجع اعتصام 960 الشهير في مطعم وولزوورث بغرينزبورو. والفلسطيني الأمريكي جورج شبلي دافع عن أمريكيين - مكسيكيين أبرياء بعد أحداث شغب قضية زوت في لوس أنجلوس في أربعينيات القرن العشرين. بالاستناد إلى هذين المثالين يمكن القول إن هناك أرضية مشتركة موجودة سلفاً بين الجماعات العرقية؛ يكفي أن نهتدي إلى لغة تمكننا من التعرف عليها وإقرارها.

لعل أفضل فرص انخراط عرب أمريكا في الحوار العرقي البيني هي معارضتنا للصهيونية. فاقت فلسطين أي قضية أخرى في تعبئة عرب فلسطين واستنفارهم ضد الذوبان الكامل مع احتضان موقف ثقافي بديل قائم على التماهي مع الشرق الأدنى. فجراء دعم أمريكا غير المشروط لإسرائيل ساهمت فلسطين، بالضرورة، في قلب عرب أمريكا من حالة جماعة مهاجرين سريعة الذوبان في البوتقة الثقافية الأمريكية إلى وضعية جالية ثورية، متطرفة معادية للتيار الرئيس. وعبر معاينة أسلوب عمل هذا التموضع في تفاعلنا مع جاليات جذرية أخرى ملونة، يستطيع عرب أمريكا أن يفوزوا بنمط الاعتراف الذي نسعى إليه فعلاً، بدلاً من تفاهات ما بعد 9/11 المقيتة، وصولاً في الوقت نفسه إلى كسب المزيد من الدعم لاختزال الوصاية الأمريكية في العالم العربي. إذا

نجحنا أن نبين من خلال النضال والبحث العلمي - الأكاديمي أن احتلال إسرائيل إن هو إلا شكل كلاسيكي من أشكال الاستعمار الكولونيالي، وليس مجرد آلية أمنية بريئة، فإننا، عندئذ، نصبح قادرين على بناء تحالف عريض لتحدي الوطنية الإلزامية التي تبدو الآن خطراً فقط بالنسبة إلى العرب المحليين، غير أنها، في الحقيقة مصدر تهديد لجميع الأمريكيين. هذه الإمكانية استثنائية الجدوى حين نعاين استعمار أمريكا الشمالية واستيطانها ونتعرف على مدى استمرار ذلك في التأثير في خطاب التدخل الأجنبي.

نظراً لأن ما بات يعرف باسم تحرير العقل من الاستعمار عظيم الأهمية بالنسبة إلى تربية الدراسات العرقية، فإن هواجس عرب أمريكا تتجاوز حدود الجالية العربية الأمريكية. ومع ذلك فإن المدى الواسع لتلك الهواجس لن يتم اكتشافه بالمصادفة. يتعين على عرب أمريكا أن يفرضوا وجودهم. باحثو الدراسات العرقية يستطيعون، بدورهم، أن يهتدوا إلى سلسلة حاسمة من التقاطعات العنصرية، الثقافية، والتمثيلية في إطار الجالية العربية الأمريكية. قامت الأبحاث المتخصصة بدراسة أوضاع الأقليات بتسليط الأضواء في غضون السنوات العشرين الماضية على أن قضايا الجماعات العرقية المختلفة ليست على الإطلاق حصرية تبادلياً، كما ليست الأدوات البحثية المقابلة مؤهلة لمقاربة تلك القضايا. إذا كان باحثو الدراسات العرقية مهتمين بحركية الجاليات ونضاليتها إضافةً إلى العمل المهني المحترف، فإن الديناميات الاجتماعية المتغيرة بسرعة في أمريكا بعد 9/11 باتت، إذن، ناضجة للتقويم مع إعطاء الأولوية للاستجابة، خصوصاً إذا نجحنا في قلب "نمط

الحـيـاة الأمـريكيـة" إلى "أنمـاط الحـيـاة الأمـريكيـة". ليس من المصادفات أن أرى الدراسات العرقية حلاً ممكناً لمشكلتي الملتبس من ناحية والنفوذ البراغماتي للوطنية الإلزامية من ناحية ثانية، لأن من شأن عدم الاهتداء إلى الحلول في مجال الاختصاص، مجال الدراسات العرقية، أن يعني أن الاختصاص كله قد أخفق في أداء رسالته المعلنة.

obeikandl.com